تطور علم الاجتماع فى تركيا

قصة البحث عن هوية جديدة

رجب شان تورك (*)

إرتبطت التغيرات التى حدثت فى علم الاجتماع فى تركيا ، والتى سنعرضها فى بحثنا هذا ، بالتغيرات السياسية الداخلية والخارجية ، وتطور المجتمع نفسه . ومن الممكن أن نقسم هذه التطورات والتغيرات بشكل مبدئى إلى أربع مراحل [١]: المرحلة الأولى : ١٩٢٣ - ١٩٣٨ ؛ المرحلة الثانية : ١٩٣٨ - ١٩٥٠ ؛ المرحلة الثالثة : ١٩٥٠ - ١٩٦٠ ؛ المرحلة الرابعة : ١٩٦٠ - ١٩٨٠ . وقبل أن نتناول هذه المراحل بشىء من التفصيل ، نقدم خلفية تاريخية لتساعد القارىء على فهم الوضع الراهن ومقارنته بالماضى .

أ - الخلفية التاريخية :

سنحاول فى هذه الخلفية التاريخية إعطاء نبذة عن أحداث وتغيرات الفترة ما بين الشعور بضرورة التغير فى الهوية وإصلاحها فى القرن التاسع عشر حتى اتخاذ هوية جديدة بإعلان الجمهورية التركية الحديثة .

كانت الدولة العثمانية أو « الدولة العلية » فى جوهرها دولة إسلامية فى أول الأمر [٢] ، وغير قومية ، تجمع الشعوب والأديان والثقافات المختلفة [٣] تحت مظلتها . وكانت شرقية تدافع عن الشرق ضد الغرب وتحمل سمات مهمة

(*) قسم علم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة استانبول ، تركيا Recep Senturk Istanbul Universitesi, Edebiyat Falkultesi, Sosyoloji Botumu, Turkiye Universitesi.

من الحضارة الشرقية . مثلا كانت اللغة العربية لغة العلم ، والفارسية لغة الأدب ، والتركية لغة الادارة . وفى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ – ١٥٦٦) كانت قد بدأت تغيرات وتطورات كثيرة فى الغرب [٤] أو ، بتسمية العثمانيين ، فى « ديار الكفر » . وقد التقت الدولة العثمانية أول مرة وبشكل مباشر بتلك التطورات عندما بدأت تُهْزَم فى حروب دخلتها مع دول أوروبا . وكانت الهزيمة الأولى فى فيينا سنة ١٦٨٣ ، عندما لم يستطع الجيش فتح قلعة فيينا ، وأعدم قره مصطفى باشا بسبب فشله . وبقيت الحدود السياسية للدولة العثمانية على حالتها حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لكن التدهور الداخلى والتغير فى مناهج التفكير [٥]بدأ على الأقل منذ بداية القرن السابع عشر .

وكان لاكتشاف الأوروبيين رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن السادس عشر أثرٌ كبيرٌ على سياسة واقتصاد الدولة العثمانية . فبعد هذا الكشف ، ووصول السفن الأوروبية إلى سواحل اليمن وتهديدهم الأراضى المقدسة ، وعجز أهل هذه البلاد عن الدفاع عن أنفسهم خصوصا بعد هزيمة قانصوى الغورى (١٥٠٥) أمام البرتغاليين ، تغيرت سياسة الدولة العثمانية التى كانت تقوم على التوسع الدائم نحو « ديار الكفر » حتى يصل طرف الهلال بالآخر . [٦]ورأى السلطان سليم الثانى الاتجاه إلى الشرق . وهذا التغيرٌ ، مع أنه كان له نتائج إيجابية أفادت العالم الإسلامى والدولة العثمانية ، مثل توحيد العالم الإسلامى تحت قيادة وراية واحدة ، والدفاع عنه ضد القوى المستعمرة ، وإحياء نظام الخلافة بانتقاله إلى يد أقوى ، لكنه ترتبت عليه أيضا نتائج سلبية ، منها أن الاتجاه نحو الشرق أخذ من العثمانيين وقتا وجهداً ، مما تسبب فى تشتيت طاقتهم وتوزيع اهتمامهم بين الشرق والغرب (مع أن إقتصاد هذه المنطقة لم يكن كما كان فى السابق عندما كانت طرق التجارة بين الشرق والغرب تمرّ بها قبل كشف رأس الرجاء الصالح ، وأن المنطقة قد فقدت خصوصية كونها جسراً بين الشرق القديم والغرب والاستفادة من هذا تجاريا وثقافيا) . ومن ناحية أخرى أفاد ذلك الأوربيين كثيراً ، فقد مكنهم من الوصول إلى الشرق القديم ، بدون حاجة إلى المرور بأراضى الدولة الاسلامية وبدون مصادمات عسكرية ، حيث وجدوا المادة الخام والسوق اللذين هما الأساس لنشأة نظام رأسمالى .

هكذا بدأ تغير الأوضاع بين الدولة العثمانية وأوربا اقتصاديا وسياسيا وحضاريا . وكان العثمانيون على وعى تام بذلك . فنجد هناك أولا نداءات تدعو إلى الإصلاح ، ثم محاولات إصلاح نتيجة هذه الدعوة . وقد بدأ الإصلاح بالفعل ، ولكن من الجيش ، ولم يشمل كل المنظمات الاجتماعية ، كما انه لم يكن بشكل جذرى ، فلم يستطع أن يمنع الدولة من الانحطاط .

وصلت الدولة العثمانية فى هذه الظروف إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، الذى يهمنا أكثر مما قبله بالنسبة لتطور علم الاجتماع فى هذا المجتمع . ففى هذه الفترة انتقلت كثير من الأفكار الغربية والتيارات الحديثة إلى الدولة العثمانية ، ووجدت من يقبلها ويحارب بها الأفكار التقليدية . وهذا تم عن طريق المدارس الأجنبية ، وبعثات الطلاب إلى البلاد الأوروبية وخصوصا إلى فرنسا ، وحركة الترجمة من اللغات الأوروبية . فى هذا الجو ، نرى ثلاثة تيارات رئيسية تدعو إلى إصلاح المجتمع والدولة والتخلص من التخلف والأزمة .

أولاً : تيار العثمانية : مثله « الشبان العثمانيون » (Gens Osmanlilas) الذين كان همهم الأول إنقاذ الدولة العثمانية وحفظ وحدتها . لكنهم سرعان ما أدركوا أن « العثمانية » كمفهوم لا يمكن أن تكون عقيدة تجمع حولها الشعوب فى القرن العشرين ، فتحولوا إما إلى الاتجاه القومى أو الاتجاه الاسلامى .

الثانى : تيار الدعوة إلى الاسلام والرجوع إلى الأصول الصافية مع تجديد ما يجب تجديده فى الفقه والنظم الاسلامية ، وأخذ العلوم والتكنولوجيا من الغرب ، دون قيمه « الأخلاقية » . وقد دافعوا عن الإسلام ضد التيارات الإلحادية فى الغرب ، ودعوا إلى أن الاسلام ليس سبب التخلف وإنه لا يوجد أى تناقض بين الاسلام والعلوم الحديثة . وكانت دعوتهم سياسيا إلى الجامعة الاسلامية (Pan-Islamism) من خلال إحياء مؤسسة الخلافة . ومن بين أهم ممثلى هذا الاتجاه الشاعر الاسلامى الكبير وكاتب نشيد السلام التركى « محمد عاكف » ، وشيخ الاسلام « مصطفى صبرى أفندى » ، اللذان عاشا فى مصر بعد إعلان الجمهورية الحديثة [٧] .

والثالث : هو التيار القومى مثله « الشبان الأتراك » المعروفون فى أوروبا باسم (Young Turks) الذين درسوا فى فرنسا ، وتأثروا بالثقافة الغربية والتفكير الغربى ، وأسسوا « حزب الاتحاد والترقى » ، الذى كان له فرع فى القاهرة وفى باريس ، والذى كانت السلطة فى يده أثناء الحرب العالمية الأولى . وكانت دعوتهم إلى الجامعة التركية (Pan-Turkism) المسماة بالتورانية (Turancilik-Turanizm) التى تشمل جميع الأتراك من الصين وآسيا الوسطى حتى البلقان . وكان أهم منظرى هذه الفكرة ضيا قوكالب (Ziya Gokalp) . (١٨٧٥ – ١٩٢٤) العالم الاجتماعى التركى المشهور ، الذى تأثر بمدرسة دور كايم وبالتفكير القومى ، وكان داعيا مخلصا إلى الدور كايمية والقومية . وكان فى مقابله فى نفس الاتجاه « برنس صباح الدين » (Prens Sabahattin) (١٨٧٨ – ١٩٤٨) وهو أيضا ربى ، فى فرنسا ، ولكنه تأثر بمدرسة لوبلاى Le play ، ودعى إلى هذا المذهب . وكان يرى أن نجاح الدولة يتم بنظام اللامركزية وتغيير المجتمع ثقافيا ، وإصلاحه من خلال إصلاح التعليم . بينما كان ضياقوكالب يدافع عن المركزية ، وإصلاح الدولة أولا لإصلاح المجتمع . لم يحظ برنس صباح الدين بتأييد كثير فى حزب الاتحاد والترقى ، واضطر إلى الرجوع إلى فرنسا .

هذه التيارات الثلاثة لم تكن متباينة كل التباين ، بل كانت متداخلة ومتشابكة ، لان هدفها كان واحداً وهو الخروج من الأزمة ، بإصلاح المجتمع والدولة والحفاظ على وحدتها . وكانت أفكارهم نفس الأفكار تقريباً ، وإن كان كل تيار منها له ترتيبه الخاص به لأولوية هذه الأفكار .

نرى ضياقوكالب فى آخر هذه الفترة ، وهو قومى ، يحاول التركيب بين هذه الأفكار المختلفة . ويبدو ذلك من عنوان كتابه الذى ألفه فى أواخر هذه الفترة ، سنة ١٩١٤ : « أسْلَمَة وتُرْكَنَة وعَصْرَنَة » (Islamlasmak, Turklesmek, Muasirlasmak) ففى هذا الوقت لم يكن بإمكانه أن يتبنى واحدة منها ويهمل الآخريين ، ولكنه حاول أن يمزج بين الجميع مع إعطاء الأولوية لعنصر القومية « التُّرْكَنَة » إلا أننا نجده فى وقت لاحق يكتب « أسس القومية التركية » (Turksulugun Esaslari) فى سنة ١٩٢٣ بعدما أسست الجمهورية التركية (التّركنة) على حساب الفكرة الاسلامية (الأسلمة) .

ومن الممكن أن نرى نفس هذا التحول فى حياة مصطفى كمال آتاتورك (١٨٨٨ - ١٩٣٨) القائد الأعظم والزعيم القومى : فترة مصطفى كمال وفترة آتاتورك . ففى الأولى نرى « **مصطفى كمال** » قائدا متفوقا ، يجاهد فى سبيل الله بكل جهده للدفاع عن الاسلام والدولة العثمانية والخلافة الاسلامية ، ويتحدث عن هذه الأشياء فى كل خطاباته ليعبىء الشعب خلفه (حتى سنة ١٩٢٣) بينما نراه فى الفترة الثانية « **آتاتورك** » [٩] يظهر بهوية جديدة ومختلفة تماما ، يدعو إلى العلمانية (أى فصل الدين عن السياسة) والدفاع عن المصالح القومية - **القومية التركية والأناضولية** بمعنى ضيق - ويلغى السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية ، ويقوم بطرد آل عثمان من البلاد ، ويرفض كل ما هو شرقى وتقليدى ، ويسعى إلى كل ما هو غربى وحديث .

وبعد هذ الاطلالة التاريخية على أهم الظروف والملابسات التى أحاطت بالمجتمع التركى فى القرن الماضى ، يكون قد آن الأوان لكى ننتقل لمتابعة تطور علم الاجتماع فى تركيا خلال المراحل الاربع التى سبق تحديدها .

ب - تطور علم الاجتماع فى تركيا

يمكننا أن نعالج التطورات فى علم الاجتماع التركى تحت عنوان «قصة البحث المستمر عن هوية جديدة» . فكما رأينا فيما سبق حين بدأ الشك فى الهوية العثمانية التقليدية ظهر أمام عالم الاجتماع العثمانى ثلاثة بدائل[١٠] : إما الاستمرار فى الهوية العثمانية التقليدية ، أو إحياء الهوية الاسلامية الاصيلة ، أو تقمص الهوية الغربية القومية[١١] . وكان واضحا ، قبل تأسيس الجمهورية التركية (١٩٢٣) ، ان كل بديل من هذه البدائل يحاول أن يثبت انه هو الانسب . ونتج عن ذلك ثراء كبير فى الحياة الفكرية فى تلك الفترة . ولكن هذه المنافسة انتهت باختيار التيار القومى الداعى إلى التغريب ، بسبب تبنى السلطة الجديدة (١٩٢٣) لهذا البديل . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد . فقد ظهرت مشكلة أخرى وطرحت السؤال : ايهما افضل : النمط الفرنسى ام النمط الانجلوسكسونى ؟ وبعبارة أخرى : **اى غرب** ؟ .

ومن شأن الاجابة على هذا السؤال إحداث اول تفرقة جدية بين علماء الاجتماع فى تركيا الحديثة . فبرنس صباح الدين ، ومن نحا نحوه ، رأوا أن

النمط الانجلوسكسونى (Anglo Saxon) هو الافضل ، ويجب الاخذ به . بينما فضل ضياقوكالب النمط الفرنسى . وفى الحقيقة فان هذا الصراع بين ضياقوكلب وبرنس صباح الدين كان قد بدأ قبل تأسيس الجمهورية التركية بصدد وضع سياسة لحزب الاتحاد والترقى منذ مايقرب من ربع قرن ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . إلا انه انتهى بعد ان تبنت السلطة السياسية الجديدة النمط الفرنسى .

ولكن هذا الصراع عاد للظهور مرة أخرى فى الخمسينات ، بعد انقضاء الفترة الاولى والثانية ، (١٩٥٠) مع ملاحظة حدوث بعض التغيرات فى خريطة الصراع ، بفعل التطورات الجديدة فى السياسة العالمية عقب الحرب العالمية الثانية .

١ - المرحلة الاولى : ١٩٢٣ - ١٩٣٨

بعد نهاية الحرب العالمية الاولى وحرب الاستقلال القومى التركية ، اسست الجمهورية التركية الحديثة تحت رياسة الزعيم القومى مصطفى كمال آتاتورك ، الذى نجح فى تأسيس دولة جديدة على نمط اوروبى ، مع أنّ أخْذ نمط الحياة الغربى لم يكن سهلاً بعد الحروب طوال قرون ضد اوروبا وبعد طرد القوى الغربية المستعمرة من قلب الوطن التركى الأناضولى . ونظراً لهذا ، فقد لجأ آتاتورك إلى اتباع ما سمى بـ «انقلابات آتاتورك» أو «سياسة المراحل» فى كل مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والقانونية والادارية .... وغيرها .

ولذلك نلاحظ فى هذه الفترة وجود محاولات كثيرة لخلق مجتمع جديد ، اى «مجتمع حديث غربى علمانى» ، على انقاض المجتمع القديم التقليدى الشرقى الاسلامى . فنرى ان الاتراك - ليسوا كلهم بل من يعيش منهم فى الأناضول - بدلوا الزى الشرقى بزى غربى والحروف العربية بحروف لاتينية ، بعد أن أُلغيت الشريعة وأخذ بالقوانين الاوروبية المختلفة ، حتى وصل هذا التغيير إلى تغيير يوم الاجازة والتقويم . وفى أثناء عمليات التغيير التى أحدثتها سياسة آتاتورك ، كان أهم دور لعلماء الاجتماع - وعلى رأسهم ضياقوكالب - إيجاد ايديولوجية ، وخلق اسس نظرية وفكرية ، لتأسيس

المجتمع الجديد على النمط الجديد ، باستخدام علم الاجتماع . وبدون شك فان ضياقوكالب لعب دوراً كبيراً بين علماء الاجتماع فى هذه الفترة . والدليل على هذا كثرة البحوث المكتوبة بلغات مختلفه[١٢] والتى اجريت حول كتاباته وتأثيره .

وبصورة مجملة ، فإن محور النشاط الفكرى لضياقوكالب قد تركز حول مفهومى «القومية» و «العلمانية» . وكانت القومية التركية فى ذهنه مستمدة من **الوضعية والوظيفية والتكاملية** .

ويمكن القول ان تأثير ضياقوكالب قد ظهر فى المجتمع من خلال أفكاره التى طرحها حول «القومية التركية» و «الاسلام» و «المعاصرة» . وكان مما ساعده على نشر هذه الافكار ، وظهور أثرها ، عدة امور هامة ، منها انه كان اول من درس «علم الاجتماع» بجامعة استانبول (١٩١٥) ، وقيامه بدور المخطط الايديولوجى لحزب الاتحاد والترقى قبل زوال الدولة العثمانية ، ثم قيامه بنفس الدور فى حزب الشعب الجمهورى فى عهد الجمهورية التركية الحديثة . وبالاضافة الى ذلك فقد اصدر ابتداء من ١٩٢٢ «**المجلة الصغرى**» (Kuçuli Dergi) وكانت تصدر إسبوعيا ، وجعلها منبراً لتاييد السياسة الجديدة التى اتبعها مصطفى كمال آتاتورك . وكان لمجموعة الشباب الذين التفوا حوله دور هام فى نشر افكاره من خلال تأثرهم بها ودعوتهم اليها فى الاوساط المختلفة . ومن ابرز هؤلاء : حليم ثابت (Halim Sabit) ، ومصطفى شرف (Mustafa Seref) ، وتكين آلب أو باسمه الاصلى موئيزكوخن (Tekin Alp - Moiz Kohen) ، ونجم الدين صادق (Necmeddin Sadak) ، وفؤاد كوبريلى (Fuat Kuprulu)

هناك ايضا بعض العلماء الذين كانوا يوافقون قوكالب مبدئيا فى الايديولوجيه القومية مع انهم اتجهوا إلى الفردية وتجمعوا حول مجلة «**دركاه**» (Dergah) ، ومجلة آيدينليك (Aydinlik) ، منهم مصطفى شكيب طونج (Mustafa Sekip Tung) ، وإسماعيل حقى بلطة جى أوغلى (Ismail Hakki Baltauoglu) ، ويعقوب قدرى (Yakup Kadri) ، وأمين أريشيركيل . كان مصطفى

شكيب ينشر أفكار برجسون (Bergson) ، بينما كان إسماعيل حقى يحاول التأليف بين مصطفى شكيب وقوكالب فى مجال التعليم . هكذا برز مصطفى شكيب وإسماعيل حقى ، وأمثالهما ، فى الفترة الآتاتوركية ، واشتهروا ، مع أنهم لم يفعلوا شيئا إلا نقل ما وجدوه من الأفكار فى أوروبا ، بشكل غير دقيق .

وفى الحقيقة فإنه فى الفترة الآتاتوركية التى تقع بين ١٩٢٣ - ١٩٣٨ ، اهتم أغلبية البيروقراطيين والسياسيين بالفكر الاجتماعى قدر استطاعتهم . محمود أسعد بوزكرد (Mahmut Esad Bozkurt) ، وكثير من أمثاله ، عرضوا الأيديولوجية الرسمية فقط . وتعتبر كتابات موزكرد نموذجاً جيداً فى هذا الصدد . إذ نجده مهتما فقط بالأيديولوجية الرسمية والدفاع عنها (١٣) .

مع هذا نشاهد فى هذه الفترة أشخاصا قاموا بمحاولات شتى ، وسريعة جدّاً ، لتكوين وإرساء أيديولوجية جديدة لخلق مجتمع جديد تحت إسم « **الكمالية** » (Kemalizm) أو الأتاتوركية المعبرة عن القومية التركية والعلمانية ، والدعوة إلى التغريب والتحديث ، وترك التراث تماما . منهم يوسف آكشرا أوغلى (Yusuf Aksuraoglu) ، وأحمد أغا أو غلى (Ahmet Agaoglu) (١٤) .

ولعبت مجلة « كادرو » دوراً هاماً فى هذه الفترة . وكان يكتب فيها شوكت سريّا (Sevket Sureyya) ، و ودات نديم (Vedat Nedim) ، وإسماعيل خسرو (Ismail Husrev) وبرهان آساف (Burhan Asaf) ، وشوقى يازمان (Sevki Yazman) ، ويعقوب قدرى (Yakup Kadri) محاولين صياغة نظرية للثورة الكمالية التى تمت قبل بضع سنين .

وباختصار شديد ، استخدم علم الاجتماع فى هذه الفترة لتوفير غطاء أيديولوجى لسياسات السلطة الجديدة . ومن هذا المنطلق عولجت كثير من الموضوعات على نحو متداخل يجمع بين علم الاجتماع وبين السياسة والفلسفة والتعليم والأيديولوجية . ولا يمكننا أن ننتظر تنوعا فى الأفكار والاتجاهات فى مجتمع يمر بمرحلة تحولات ثورية سريعة . ولا يمكننا أيضا ، لهذه الأسباب ، أن نتحدث عن تطور علم الاجتماع كعلم ، بل عن تطور الفكر الإجتماعى (١٥)

والذى اتخذ من الغرب إطارا مرجعيا ، والذى كان هدفه الأول التحديث والتغريب وإنتاج نظرية وأيديولوجية للتغيرات الاجتماعية التى تم تحقيقها .

المرحلة الثانية : ١٩٣٨ - ١٩٥٠ :

فى هذه الفترة حدثت بعض التطورات المهمة فى علم الاجتماع التركى ، مع أنه كان لا يزال يتسم بخصوصيات المرحلة السابقة . ففى عام ١٩٣٣ افتتحت جامعة استانبول بهوية مستغربة . بعد ذلك أخذت العلوم الاجتماعية تتطور بسرعة ، وتتسم بالعلمية والانتشار والتشعب . وبدأت تظهر تأثيراتها فى توجيه المجتمع . وأجريت كثير من البحوث الميدانية ، رغم أن الحرب العالمية الثانية كانت رحاها دائرة .

« وللأسف الشديد فقد جاءت التطورات فى علم الاجتماع التركى بقرار سياسى » [١٦] فقد انعكست « سياسة الحياد » التى انتهجتها السلطة أثناء الحرب داخليا فى صورة وجود نوع من « الموازنة » بين التيارات المختلفة . ثم جاءت التطورات التى أعقبت الحرب ، وأهمها بروز دور الولايات المتحدة الأمريكية ، لتلقى بظلالها على أوضاع علم الاجتماع فى تركيا . وظهر ذلك فى صورة التحول من علم الاجتماع الفرنسى إلى علم الاجتماع الأمريكى .

وإذا كانت المرحلة السابقة قد تميزت بالبحث عن هوية إجتماعية جديدة ، واشتغل علماء الاجتماع والمفكرون والكتاب فى المجالات المختلفة بهذا الغرض ، وناقشوا الموضوعات الاجتماعية والسياسية والتعليمية فى أجواء « **الثورة** » ، ورغم وقوف آتاتورك بشخصيته القوية ضد التيار الإسلامى والشيوعى ، إلا أن هذه الحرية النسبية إستمرت فى الفترة الثانية أيضا ، حيث نرى نشاطا فى الجامعات وحول المجلات المختلفة التى كانت بمثابة مدرسة فكرية تسمح للحوار والدفاع عن الأفكار المطروحة فى الساحة . ونظرا لحدود الحرية التى سمح بها ، فقد اضطر بعض العلماء المشهورين الذين يعرفهم العالم اليوم للهجرة إلى أوروبا ، وظهرت إسهاماتهم فى جامعاتها ، مثل مظفر شريف (Muzaffer Serif) ، ونيازى بركس (Niyazi Berkes) .

وبعد هزيمة الفاشية فى الحرب العالمية الثانية ، وحدوث تطورات إيجابية للحركات الديمقراطية والتحررية فى العالم ، قرر عصمت باشا ، رئيس الجمهورية الثانية بعد آتاتورك ، الانتقال إلى نظام ديمقراطى . ولكن لم يسمح إلا بوجود معارضة مخلصة للسلطة ، مع إبعاد وكبت الأفكار المناهضة .

المرحلة الثالثة : ١٩٥٠ - ١٩٦٠

فى عام ١٩٥٠ انتقلت السلطة من حزب الشعب الجمهورى إلى الحزب الديمقراطى ، بعد فوزه فى الانتخابات العامة بنجاح ساحق . وبدأت حكومة الحزب الديمقراطى ، برئاسة عدنان مندريس ، فى تطبيق سياسة أكثر ديمقراطية ، وترك سياسة « للشعب برغم الشعب » التى سار عليها حزب الشعب الجمهورى الذى حكم منذ سنة ١٩٢٣ . وكان من شأن السياسة الجديدة التى اتبعها الحزب الديمقراطى تلبية المتطلبات الشعبية ، مثل تعريب الآذان (١٢ يوليو ١٩٥٠) . وبدأت القوى الشعبية تظهر بهويتها الأصلية فى مجال السياسة والفكر الاجتماعى . كما بدأت التساؤلات حول الموقف القائم حضاريا وثقافيا وإجتماعيا . وانتشرت كتب بعض المفكرين ، مثل على فؤاد باش كيل (Ali Fuat Basgil) « عالم قانونى عالمى » ، ونجيب فاضل قصاكورك (Necip Fazil Kisakurek) « شاعر وأديب » . وظهرت مجلة « **الشرق الأكبر** » (Buyuk Diogu) كمدرسة تجمع الشباب حولها تحت قيادة نجيب فاضل الذى كان يدعو إلى الأصالة والاهتمام بالقيم القومية والاسلامية .

والحق أن السياسة التى اتبعها الحزب الديمقراطى اكسبته شعبية كبيرة فى أوساط المثقفين وفى المجتمع بصفة عامة ؛ الأمر الذى أثار سخط القوى التى درجت على التحكم فى الشعب ، والتى رأت فى التحولات الجديدة خطراً على النظام الديمقراطى والعلمانى . وفى النهاية وقعت حادثة ١٩٦٠ ، وأعدم رئيس الوزراء عدنان مندريس وبعض الوزراء معه .

تأثر علم الاجتماع بهذه التطورات ، وبدأ الاتجاه إلى الدراسات النظرية بعد البحوث الميدانية . وفى هذه الفترة نشرت بعض البحوث النظرية القيمة ، مثل كتاب حلمى ضيا أولكن (Hilmi Ziya Ulken) « قضايا علم الاجتماع » سنة ١٩٥٥ . ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين الأجانب قاموا بعمل

بحوث ميدانية عن بعض قضايا المجتمع التركى ، مثل « بول سترلنج » (Paul Stirling) الانكليزى، وجورج هلينج (George Helling) الأمريكى ، اللذين قاما ببحوث ميدانية فى الريف [١٨] .

المرحلة الرابعة : ١٩٦٠ - ١٩٨٠ :

أثر الصراع الذى بدأ فى أواخر الخمسينات بين الجامعة والحكومة فى تطور علم الاجتماع . وفى ظل الدستور الجديد ، الذى صدر سنة ١٩٦٠ ، وبفضل الحريات الواسعة التى ضمنها ، بدأت الدراسات الاجتماعية تدخل فى مرحلة جديدة . فبدأ الاتجاه الماركسى ينتشر فى الأوساط الجامعية . ومن أبرز من ظهر فى هذا الاتجاه : جاهد طانيول (Cahit Tanyol) من كلية الآداب جامعة استانبول ، وجاود أورخان توتن كيل (Cvit Orhan Tutengil) من كلية الاقتصاد جامعة استانبول ، وإبراهيم ياصا (Ibrahim Yasa) من كلية العلوم السياسية بجامعة انقرة ، ومبجل كراى (Mubeccel Kiray) من جامعة الشرق الأوسط . وهؤلاء أسهموا بجمع وتحليل المعلومات المتعلقة بقضايا المجتمع التركى .

وفى هذه الفترة نشطت « **جمعية العلوم الاجتماعية التركية** » منذ بداية الستينات . فقامت ببحوث ميدانية ، من أهمها : « المسح الشامل لمدينة إزمير » ، تحت إشراف شريف ماردين (Serif Mardin) ، مع فريق بحث مكون من « مبجل كراى » (Mubeccel Kiray) ، وروسن كلش (Rusen Keles) ، وجواد كراى (Cevad Giray) ، وأوغوز آرى (Oguz Ari) ، واركون أوزبودون (Ergun Ozbudun) ، ودينز بايكال (Deniz Baykal) ، ومته تونجاى (Mete Tuncay) ، وشفيق أويصال (Sefik Uysal) ، وشِغْدَمْ كاغيتجى باشى (Cigdem Kagitcibasi) . كما قامت الجمعية بنشر بعض الكتب الأساسية فى العلوم الاجتماعية ، مثل « الدين والأيديولوجيا » لشريف ماردين ، « الابعاد النفسية للتغير الاجتماعى » لشِغْدَمْ كاغيتجى باشى ، « ومدينة فشلت فى التنظيم » لمبجل كراى ، و « أَحْبَاءُ إزمير » لورسن كلش ، و « الأسرة المدينية فى إزمير » لأمره كونغار .

وفى سنة ١٩٦٠ عقد مؤتمر حول « **تطور البحوث الاجتماعية فى تركيا** » ناقش فيه الباحثون من جميع جامعات تركيا التطورات المختلفة

فى هذا المجال ، والمشاكل النظرية والمنهجية ، وكيفية تقويم البحوث الميدانية والاستفادة منها . وأصدر المشاركون فى المؤتمر تقريراً يحتوى على التوصيات التالية :

١ – تكثيف الاهتمام بالعلوم الاجتماعية ، لتكون مرشداً للكشف عن أسباب المشاكل الاجتماعية التى يعانى منها المجتمع وفى البحث عن حلول لها .

٢ – تقويم وتحليل البحوث فى إطار الظروف الخاصة بتركيا .

٣ – إعطاء الأولوية للبحوث والدراسات التى تدرس بناء المجتمع التركى من وجهة نظر علم الاجتماع والاقتصاد .

٤ – دراسة المشاكل الناجمة عن ديناميات البناء الاجتماعى مع الاهتمام بالتغير الاجتماعى والزمنى .

٥ – تأسيس « مركز البحوث الاجتماعية القومية » ، المستقل عن سلطة الحكومة ، ليساعد فى توفير جو مناسب للتعاون العلمى بين الباحثين ، وتدعيم البحوث المشتركة ، مع إعطاء الأولية للبحوث التى تساهم فى حل مشاكل المجتمع وتنميته [١٩] .

وهذا التقرير ذو أهمية كبيرة ، لأن الباحثين وعلماء الاجتماع فى جميع أنحاء تركيا نجحوا لأول مرة فى التجمع والحوار حول المشاكل العلمية والاجتماعية ، وإصدار قرارات تعبر عن موقفهم وإعلانها على الرأى العام .

كان المؤتمر قد عقد فى فبراير ١٩٧٠ ، ولكن فى نفس العام وقع انقلاب عسكرى يذكر بما حدث عام ١٩٦٠ . وفى عام ١٩٨٠ وقع انقلاب آخر للمرة الثالثة . وفى كل مرة كانت الحجة هى حفظ النظام الديمقراطى ، ومحاولة تصحيح أخطاء الفترة الماضية .

ويمكن القول ان أبرز خصائص هذه الفترة هى وجود مؤسسات وأنشطة خارج الجامعات تشتغل بالبحوث الاجتماعية بشكل جدى ، كما نشرت خلالها بعض البحوث القيمة ، وفتحت أكاديميات للعلوم الاقتصادية والتجارية فى مدن

مختلفة ، مثل استانبول وأنقرة واسكيشهيز . وهذا مما أفاد كثيراً فى انتشار علم الاجتماع .

ولكن ماذا عن أوضاع علم الاجتماع فى الوقت الراهن ؟

جـ - الوضع الراهن : ما بعد ١٩٨٠

صار علم الاجتماع فى تركيا اليوم جزءاً لا يتجزء من الحياة الاجتماعية ، اذ أنه أدى - ومازال يؤدى - دوراً كبيراً فى تحديث « وتغريب » المجتمع .

ومن أول المعالم البارزة للوضع الراهن تجاوز أسوار الجامعة . وهذا يظهر بشكلين ، أولهما ؛ أن بعض الباحثين من خارج الجامعة يقومون ببحوث علمية قيمة وينشرونها ، وثانيهما : أن الجامعات تستفيد من هذه البحوث فى التدريس ، كما أن اساتذة الجامعة ينشرون بحوثهم فى خارج الجامعة . وهذا الترابط والتعاون يدلان بلا شك على تطور صحى فى علم الاجتماع [٢٠] . ويلفت النظر هنا أنه خرج من المدن الكبيرة ، مثل إستانبول وأنقرة ، ووصل إلى المدن الصغيرة مثل اسكيشهير وارض روم .

ومن ناحية أخرى نجد أن أكثر الكتب طبعا ومبيعا وقراءة الآن هى الكتب التى تعالج الموضوعات الاجتماعية ، حيث أن التفكير الاجتماعى والبحوث العامة والجزئية نظرية كانت أو إمبريقية تجذب اهتمام أعداد متزايدة من القراء .

ومما يدل كذلك على تزايد أهمية علم الاجتماع أن بعض المؤسسات تقوم برصد جوائز لعلماء الاجتماع المتفوقين ، على نحو ما يحدث بالنسبة للعلوم والفنون .

وإذا كان علم الاجتماع قد قام بمهمة أساسية فى حياة المجتمع التركى (العلمنة والتحديث والتغريب) ، إلا أنه بعد أن تحققت خطوات كبيرة فى هذه المجالات ، كان عليه أن يبحث عن مجالات إهتمام أخرى ليحتفظ لنفسه بدور مناسب فى المجتمع ، وهكذا شهدنا ظهور دراسات تعنى بنقد وتحليل

المجتمع : ماضيه وحاضره ، تعرض التناقضات الموجودة فيه فى المجالات المختلفة ، مثل الثقافة والهوية ، وكذلك التناقضات الاجتماعية المتعلقة بتوزيع الدخل القومى ، وغيره ، مع تقديم اقتراحات لمعالجة هذه القضايا . وفى هذه النقطة تظهر أفكار وتيارات مختلفة .

د - علم الاجتماع التركى على أعتاب مرحلة جديدة :

وبالرغم من أهمية ما سبق ذكره بخصوص ملامح الوضع الراهن لعلم الاجتماع فى تركيا ، إلا أنه الأهم من ذلك هو حدوث بعض التطورات ذات المغزى العميق فى الدراسات الاجتماعية ، مما تتعلق بالبحث حول هوية علم الاجتماع التركى من حيث أصوله ومصادره وأطره المرجعية.. ووصل الأمر إلى حد التشكيك فى هذه المسائل ، والوقوف منها موقفا نقديا واضحاً ، وهو ما لم يكن معهوداً على هذا النحو من قبل .

ومن أبرز الذين يمثلون هذا التحول الجديد بايكان سزر (Baykan Sezer) الأستاذ ورئيس قسم علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة استانبول . ففى كتابه « **العناوين الرئيسية لعلم الاجتماع** » الذى صدر فى عام ١٩٨٥ ، (والذى يتكون من ثلاثة أبواب : علم الاجتماع كعلم ، وعلم الاجتماع فى الغرب ، الشرق أمام علم الاجتماع) يتخذ موقفا نقديا صريحا من الغرب وقيمه وحضارته وعلاقاته بالأمم غير الغربية ، وينبه إلى أن الغرب يسعى دائما إلى ضمان استمرار سيطرته ولا يسمح لهذه الأمم بأن تشق طريقها نحو التطور بنفسها ، ويرى « أن الغرب فى أحسن الأحوال يسمح للأمم غير الغربية بأن تشاهد ما يحدث لها فقط ، ولكنه أبداً لا يسمح لها بأى حق فى أن تصيغ لنفسها هوية معاصرة ، بل إن الأدهى من ذلك هو أن الغرب يحاول إقناع هذه الأمم بأن تتخلى عن قيمها وأصولها التاريخية كشرط لتطورها » [٢١] .

ويبرز فى مقدمة نفس الكتاب ، وهو بصدد حديثه عن منهجه فى الدراسة ، أنه ملتزم بمنطق علم الاجتماع عندما يناقش « علم الاجتماع »-نفسه ، وانه لا يخرج أبداً عن إطار هذا العلم . يقول « نحن نناقش هنا تحت عنوان « العناوين الرئيسية لعلم الاجتماع » علم الاجتماع نفسه ، ونحن ملتزمون

بقواعد ومنطق هذا العلم فى تلك المناقشة، ولانخرج خارج إطار علم الاجتماع».

ويذهب بايكان سرز إلى أبعد مما سبق. فيرفض الاكتفاء بنقل علم الاجتماع الغربى، فهذا لا ينتج على أحسن الأحوال إلا تلاميذ مجتهدين لدى أساتذة غربيين. ويدعو إلى ضرورة الاهتمام بمشاكل المجتمع التركى، باعتباره **مجتمعاً شرقياً** له خصوصياته المختلفة عن المجتمعات الغربية التى ولدت «علم الاجتماع الغربى» ليدافع عن مصالحها. ويبين أهمية التاريخ وتقويمه بشكل صحيح، حتى يمكن إيجاد حلول صحيحة لمشاكل المجتمع. فيقول – وهو بصدد نظرية التحليلية النقدية لعلم الاجتماع الغربى – : «إنه لا يوجد مجتمع مثالى مجرد عن المصالح الخاصة، بحيث يمكن أن يكون **موضوعاً ومُنتِجاً** لعلم إجتماع يصلح لكل مجتمعات العالم. فالمفاهيم المستعملة فى علم الاجتماع تختار وتخترع دائما من منظور مصالح إجتماعية معينة وخاصة. فالجوهر الحقيقى الكامن داخل هذه المفاهيم لا يعبر إلا عن مصالح مُرَوَّجَة بشكل مثالى فقط، ومن ثم فهى ليست سوى شبه إطار أيديولوجى يدافع عن هذه المصالح بشكل صريح، والأسوأ من ذلك أن يدافع عنها بشكل خفى تماماً».

ويدعو بايكان سزر إلى ضرورة الاتجاه نحو تأسيس علم إجتماع يتخذ من المجتمع التركى – بقيمه وعاداته وتاريخه – إطاراً مرجعياً، ويكون متحرراً من الأطر المرجعية الغربية. «لابد لعلم إجتماعنا» أن يدافع عن مصالحنا الإجتماعية، ولن يتم ذلك إلا من خلال دراسة تاريخنا بشكل صحيح، «لأن المجتمعات ومصالحها تتكون عبر تاريخها». ويؤكد فى هذا الخصوص على ضرورة الابتعاد عن إستعمال المفاهيم المجردة، المقطوعة الصلة بالواقع.

وأخيراً فان هناك دعوة إلى «**اسلمة العلوم الاجتماعية**»، بدأت بتأثير الترجمات المنقولة عن المفكرين الاسلاميين فى الشرق والغرب، مثل على شريعتى من ايران، وإسماعيل راجى الفاروقى من امريكا، وإلياس بايونس،

من باكستان ، وعلى عزت باقويس من يوغوسلافيا . وتتواكب هذه الدعوة مع انتشار الافكار الاسلامية ، وإن كانت مازالت فى طور النشأة والتكوين والنضج . وتتواكب أيضاً مع مراعاة العالمية إلى أسلمة العلوم الاجتماعية بالرغم من أن التفكير الاسلامى فى تركيا الحديثة وجد لنفسه ممثلين أقوياء من المفكرين والكتاب الكبار منذ البداية[٢٢] .

أما بالنسبة لمستقبل علم الاجتماع فى تركيا ، فان التطورات القادمة ستعطينا القدرة لإجابة هذا السؤال : إلى متى ستستمر مشكلة البحث عن الهوية فى المجتمع التركى وعلم الاجتماع التركى ؟

الهـــوامـــش

١ – التواريخ المستعملة فى التحديد الزمنى تشير إلى أحداث مهمة أثرت فى سير المجتمع التركى ، ومن خلاله فى علم الاجتماع . وهنا ما يقابل هذه التواريخ من الأحداث المهمة : ففى ١٩٢٣ : أعلنت الجمهورية تحت رياسة مصطفى كمال آتاتورك ؛ و١٩٣٨ : توفى آتاتورك ، وتولى الرياسة عصمت باشا اين أونى ؛ و١٩٥٠ : انتقلت السلطة من حزب الشعب الجمهورى إلى الحزب الديمقراطى لمدة عشر سنوات ؛ و١٩٦٠ : الانقلاب العسكرى ، وابعاد عدنان مندريس ووزرائه من السلطة وإعدام بعضهم . وقد حدث انقلابان عسكريان آخران فى سنة ١٩٧٠ و١٩٨٠ بحجة « حفظ النظام الديمقراطى » .

٢ – انظر فى هذا الموضوع ، كمرجع عربى : عبدالعزيز الشناوى ؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (أربعة أجزاء) مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٩ – ١٩٨٣ .

٣ – كنموذج لهذا ، السلطان محمد الثانى الفاتح ، الذى حقق أمل العرب بفتح القسطنطينية ، وكان يكتب أشعارا بلغات مختلفة ، من بينها اللغة اليونانية . وهنا يجب بحث اتهام القوميين الأتراك للدولة العثمانية بأنها لم تكن تركية ، فى نفس الوقت الذى كان فيه بعض المثقفين العرب يتهمونها بالعمل لأجل المصالح القومية التركية !

٤ – للمراجعة فى موقف الدولة العثمانية والمثقفين العثمانين تجاه التطورات فى أوروبا ، انظر : القسم الأول من كتاب :

HANIOGLU, Sukru; Bir Siyasat Orgut Olarak Osmanli ittihat ve Terakki Cemiyeti ve Jon Turkluk (1889-1902), Iletisim Yay, Istanbul, 1985.

٥ – لتفسير فيبرى لانحطاط الدولة العثمانية ، راجع كتب الأستاذ الدكتور صبرى أولكنر (Sabri Ulgener) ، ولتفسير ماركسى كتب الأستاذ إسماعيل جم (Ismail Cem)

٦ – كان العثمانيون يشبهون المناطق المسكونة بالمسلمين فى سواحل البحر الأبيض المتوسط من غرب شمال افريقيا حتى نهاية البلقان ، بالهلال

وكان هدفهم ربط طرفى هذا الهلال (أو القوس) ، بفتح روما وفرنسا وإسبانيا .

٧ – أنظر : KARA, Ismail, Turhiyede Islamcilik Dusuncesi, Risale Yay. Istanbul, 1987.

أيضا كتابات شيخ الاسلام مصطفى صبرى أفندى ، وخصوصا ، **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين** ، أربعة أجزاء ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١٩٨١

٨ – يمكن الرجوع إلى كتاب شكرى حانى أوغلى (المرجع السابق) فى نشاط شبان الأتراك فى القاهرة ، خصوصا مردا بك ، الذى أصدر مجلة « **ميزان** » فى القاهرة . وأثناء وجوده كانت القاهرة مركزا فكريا وحركيا أكثر أهمية من المراكز الموجودة فى أوروبا .

٩ – أخذ هذا الاسم رسميا فى سنة ١٩٣٤ .

١٠ – يمكن الرجوع إلى : AKCURA, Yusuf; Us Tarz-1 Siyaset, TTK, 1976.

١١ – وهنا يجب توضيح العلاقة بين التغريب والتيار القومى ، كان التيار القومى منذ البداية أكثر تأثراً بالغرب . ولعل هذا من نشأة الفكرة القومية (Nationalism) فى أوروبا فى العصور الحديثة ، وتربية رواد هذه الحركة فى الغرب ، وخصوصا فى فرنسا ، وتشجيع الغرب التيارات القومية فى الدولة العثمانية .

١٢ – لا ترى حاجة إلى تعداد ما كتب باللغة التركية ، بل نكتفى بذكر أحدث ما كتب فى هذا الموضوع :

TURKDOGAN; Orhan, Ziya Gokalp Sosyolojisinin Temel Ilkeleri, Kultur ve Turizm Bakanhgi Yayinlari: 736, Ankara, 1987.

بعض المراجع باللغات الأوربية :

HEYD; Uriel, Foundaitions of Turkish Nationalism: Life and the Teachings of Ziya Gokalp, 1950.

BERKES; Niyazi, Turkish Nationalism and Western Civilization, 1959·

BERGSTRASSER, G. Islam und Abendland, von Agyptischen und Turksichen Modernismus, Auslandstudien, 4. Band, Der Vordere Orient, Konigsberg, 1929.

DENY; J, Ziya Goek Alp, Reuve de Monde Musulman, Tome 61, (1925, 3 Trimestre) PP. 1-41.

FAHRI, A. Ziyaeddin; Ziya Goek Alp. Sa, vie et sa Sociologie, (Essai sur L'influence de la sociologie Francaise en Turquie), Paris, 1935.

HARTMANN, Richard, Ziya Gokalp's Grundlagen des Turkischen Nationaluismus, Orient. Lit. Zeit. 28 Jahrg. Nr, 9-10 (Sept. Oct. 1925) PP. 578-610.

PRITSCH; Erich, Dichtungen Ziya Gokalp, Festschriff Fr. Giese, Leipzig, 1941, pp. 119-28.

ALP; Tekin (M. Cohen) Le Kemalisme, Paris, 1937.

١٣ – أنظر : KONGAR, Emre, Turk Toplumbilimcileri, sh. 16, Remzi Yay. Istanbul, 1982.

١٤ – المرجع نفسه ، ص ١٧ .

١٥ – المرجع نفسه ، ص ١٧ .

١٦ – المرجع نفسه ، ص ١٨ .

١٧ – المرجع نفسه ، ص ١٩ .

١٨ – المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

١٩ – المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

٢٠ – المرجع نفسه ، ص ٢٣ .

٢١ – SEZER; Baykan, Sosyolojinin Ana Basliklarl, p. 169, I.U.E.F., Istanbul, 1985.

٢٢ – أنظر فى هذا الموضوع : MERIG, Umid, Cevdet Posanin Cemiyet ve Devlet Gorusu, Otuken Yay. Istanbul, 1975.

٢٣ – قرة ، مرجع سبق ذكره ؛ وكنموذج باللغة العربية : على فؤاد باشكيل (عضو محكمة لاهاى الدولية والأستاذ بجامعة استانبول سابقا) (ترجمة أورخان محمد على) دار الوثائق ، الكويت ، ١٩٨٥ .